٤ – الكتاب والأدباء المعاصرون

أنطون الجميـــــــــل

أو العاطفة الفنية فى صناعة الأدب

بقلم الكاتب اللبق: الأستاذ احمد عبدالحليم العسكرى

إذا كان أدباء الغرب المعاصرون قد عنوا كثيراً بدراسة الأدب دراسة تحليلية مهذبة منظمة ، فأنى أعتقد أنهم أفادوا كثيراً بهذا النوع من الدراسة، وانتهوا فى إفادتهم إلى إفادة الناس وتثقيف ملكة الاحساس عندهم بما وضعوه من المبادىء والقواعد البيولوجية التى تصور لنا نفس الانسان وعقله وعواطفه فى مختلف الأطوار والصور والأزياء .

أريد أن أقول: إن أدباء الغرب وباحثيهم وفلاسفتهم قد استطاعوا أن يستنبطوا من الأدب العام الذى ندرسه فى المدرسة وفى الكتاب أدباً خاصاً أطلقوا عليه اسم « علم النفس » وجعلوه كالمرآة المزجاة المجلوة تترآى فيها نفس الجماعة الهدامة البناءة، المتحمسة الطائشة، الهادئة الرزينة؛ ونفس الفرد المنعزلة المتواضعة، الخاضعة المستكبرة، العاتية الظالمة، الجموحة الطموحة إلى معانى الشر وألوان الايذاء .

وأنت تستطيع بهذا العلم الجديد الوليد أن تميز بين الأجنـاس والطبائع، وأن تقرأ الأمم المختلفة المتباينة فى أخلاقها وطبائعها ؛ ولئن كانت اللغة العربية قد خلت من هذا النوع من الآداب ، فما ذلك إلا لأن أدباءنا قد انصرفوا فى دراساتهم وبحوثهم إلى المنفعة الذاتية دون سواها، أو أن المنفعة الذاتية قد ارتفعت أثمانها فى هذا العصر الذى ارتفعت فيه الأثمان وبخست البضائع ، فكانوا لها عبيداً نعم العبيد ، وانطلقوا ينشدون مرضاتها ولو كانت فى انهدار الأدب وانحطاط معانيه ، وإدخال اللهجات التى لا تنم إلا على الزراية والتحقير .

أو فما ذلك إلا لأن الأدب قد تواضع فى هذا العصر حتى احترفه كثير من الغوغاء فوجهوه إلى غير قصده ، وذهبوا يقلبون سطوره وآياته عساهم يجدون بينها من « القروش » ما يتبلغون به ، وما يشد أزرهم فى مواطن الضراعة والدعاء والابتهال، غير ناظرين إلى ماينشأ عن ذلك من الآثار والنتائج ، ولو كانت تلك الآثار والنتائج فى إراقة ماء الحياة وفى قتل العاطفة الخلقية وتشييع الفضيلة إلى مقرها الأخير !!!

والآن أشكرك ياصديقي ياصاحب « المعرفة » لأنك أتحت لى نوعاً من الدراسة التحليلية كنت أصبو إليه منذ زمان ؛ منذ ذلك اليوم الذى جلست فيه أنا بين طلاب الأزهر أستمع وأصغى فى تلهف وشغف إلى مايلقيه الشيخ علينا من المبادىء المنطقية والقواعد الفقهية الدينية، والأحكام التى خلص من بحثها أساتذتنا القدماء، ولما تسلم هى بعد من الآفات والعلل ؛ وإنى لأعتذر لك عن مديحك والثناء عليك والاطناب بمجهودك العظيم الذى تبذله فى سبيل صناعة الأدب ؛ تلك الصناعة الجميلة اللذيذة التى قلت لك إنها قد تواضعت فى هذا العصر حتى احترفها بعض الغوغاء والسوقة فنزلوا بها إلى غير منزلها ، وتدلوا بمعانيها الى غير ما خصصت له ؛ فأشفقت عليها أنت من هذا العرض المبتذل، وصرفت جهودك لترفعها ثم لتجلوها من ذلك الصدأ الذى كساها من جراء ذلك الاحتراف الوضيع .

ولكننى أعود اليك فأوآخذك لأنك فرضت على نوعاً معيناً من الدراسة التحليلية، وجئتنى بشخصية كنت أود أن لا أتكلم عنها لكيلا أتهم بالتحيز والمحاباة ؛ فأن قبلت هذه المؤاخذة البريئة فاقبل معها تحيتى الصادقة على هذا الشعور الكريم الذى جعلك تود منذ زمان دراسة أنطون الجميل ، وتحب أن تجعل منه مادة أدبية للدراسة التحليلية المهذبة المنظمة ؛ وإن مثلك فى هذا الشعور كمثل البستانى ينظم الحديقة، ويتعهد أزهارها وورودها لكى ينتفع ويتمتع بها جميع الناس ، حتى أعداؤه وخصومه الألداء ؛ وأرجو أن يكون هذا المثل الذى أضربه لك غير قاصر عن الأداء ، إذ أنى أعتقد أن دراسة «أنطون» من الأشياء الثمينة التى تتمتع بها أنت قبل غيرك من الناس، وأتمتع بها أنا قبلك، ويتمتع بها الناس من بعدنا ؛ وقد تنتقل هذه المتعة الأدبية إلى أبنائنا وأحفادنا، فيحمدوا لنا هذا الصنيع وتلك اليد البيضاء .

كنت فى حياتى الدراسية الأزهرية أقرأ مجلة « الزهور » ويقرأها معى إخوانى الطلاب، وكنا نتسابق فى قراءتها لأنها تفيدنا كثيراً فى دروس: الانشاء ، والنحو، والصرف، والبلاغة، والعروض ؛ وكان الشيخ الذى يدرس لنا تلك الدروس ألكن العبارة، مبهم التعبير، قاصر الباع، لا يدرك أسرار اللغة وبواطن الأدب العربى كما يجب أن تدرك ؛ وكان يقال لنا: إنه فقيه وإنه عالم وإنه أديب من طراز صاحب الصناعتين والأغانى والأمالى ومن إليهم من فحول الأدب العربى ؛ ويقال لنا كذلك إنه مؤرخ عظيم بجيد التأريخ فى الآثار الاسلامية وفى « الخطط » التى اختطها الملوك والأمراء والغزاة المسلمون الذين تعاقبوا على حكم مصر الاسلامية، ووصفها المقريزى وابن إياس، وعبد اللطيف البغدادى، ومن إليهم من فطاحل مؤرخى الخطط والآثار ، وكان الطلاب جميعاً يصدقون مثل هذه الأقوال ويعتقدون أن سكوت الشيخ فى مواقف الاحراج بمثابة الوقار للعلماء ؛ وكنت أنا أشذ عن إجماع الطلاب وأعتقد أن الشيخ ، عفا الله عنه ، لا يعرف من الآداب العربية إلا بعض النظريات العامة التى يتساوى فى معرفتها الطالب

والمدرس، ويلم بها كل الألمام جمهور المتأدبين والمتعالمين؛ وكان الشيخ يحس منى هذا الشعور فيحنق على، ويدأب على التفنن فى الايذاء والأضرار بى، الى أن كانت مناقشة حادة بينى وبينه، قال الشيخ فى خلالها : إنك عاق وإنك غير مؤدب ؛ وإنك كذا وكذا الخ ؛ ومد يده فأخذ منى عدداً من مجلة « الزهور » كنت أقرأ فيه ؛ وتصفحه ثم أعاده وطلب الى أن أقرأ علناً أمام الطلاب هذين البيتين :

إن الكريم اذا نالته مخمصة أبدى إلى الناس ريا وهو ظمآن
يطوى الضلوع على مثل اللظى حرقاً والوجه طلق بماء البشر ريان

فلما قرأتهما فى إبانة ووضوح طلب إلى أن أعربهما ، وأن أصرف ألفاظهما فى مجال الاعراب، فصدعت بأمره وأجبت طلبه ، ولما انتهيت أخذ المجلة ثانية وتصفحها ثم أعادها إلى وقال : إقرأ هذا ؛ وأشار إلى مقالة مسهبة جاء فيها أن محمد بن واسع قال لقتيبة بن مسلم «إنى أتيتك فى حاجة رفعتها الى الله قبلك ، فأن يأذن الله فيها قضيتها وحمدناك ، وإن لم يأذن الله فيها لم تقضها وعذرناك» ؛ فلما سمع الشيخ هذا الكلام العربى الجزل قال أعدنيه ، فأعدته مرة واثنتين وثلاثاً ، الى أن ابتسم الشيخ فى وجهى وقال صفحت عنك ؛ وطلب منى أن أعيره ذلك الجزء من مجلة « الزهور » فأعرته إياه، ولما انتهى من قراءته أرسل إلى أنطون الجميل يقول له : عدنى مشتركا فى مجلتك ، وكان كلما وصل إليه عدد أحضره بين يديه وأخذ يدرس لنا فيه الأدب العربى فى مختلف أطواره وعصوره حتى اشتهر عنا هذا وأذيع، فوصفنا بعضهم بأننا طلاب فى الأزهر اسماً وجسماً ، وفى مجلة « الزهور » روحاً وعقلا وعاطفة .

***

أصبح معروفاً عنا نحن طلاب الفصل الرابع من السنة الخامسة الابتدائية ، أننا نطلب العلم و الأدب فى مجله « الزهور » التى كان يصدرها أنطون الجميل ، وأصبح الشيخ الذى يدرس لنا الأدب من مشتركيها وقرائها ؛ وكنا جميعاً نقرأ ما يكتب فيها من القصص الأدبية الرائعة والفصول الاجتماعية السلسة الخصبة بشغف وإمعان ؛ وكنا جميعاً نستلذ من قراءتها فنستظهرها ، ونتفهم معانيها ونتقصى أحكامها وعظاتها فى كثير من اللهف والحنان ؛ فلما كان آخر السنة وتقدمت إلى الامتحان الشفهى، سألنى أحد الأساتذة أن أقرأ له شيئا من « المحفوظات » فى الشعر أو فى النثر، على أن أذكر المصدر الذى استقيته منه ، فعدت إلى ذاكرتى أستحثها وأستجمها وأستعديها على هؤلاء الأشياخ الذين كنت أتمرد عليهم فى كثير من المواضع ، كما تعرف أنت، وأخذت أقلب فى رأسى ما قد قرأته إلى أن تذكرت قصيدة للشريف الرضى كنت درستها فى مجلة « الزهور » جاء فيها :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

تقبلت منه ظاهراً متبلجا وأدمج دونى باطنا متجهما
فأبدى كروض الحزن رقت فروعه وأضمر كالليل الخدارى مظلما
ولو أننى كشفته عن ضميره أقمت على مابيننا اليوم مأتما
كعضو رمت فيه الليالى بقادح ومن حمل العضو الأليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه أقول عسى ضنا به ولعلما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ومن لام من لايرعوى كان لوما
هى الكف مض تركها بعد دائها وإن قطعت شانت ذراعا ومعصما
دع المرء مطويا على ماذمته ولاتنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحما ولا دما
ومن لم يوطن للصغير من الأذى تعرض أن يلقى أجل وأعظما

وبعد أن قرأت هذه الابيات سألنى رئيس اللجنة عن المصدر الذى استقيتها منه، فقلت: إنه ياسيدى الاستاذ مجلة « الزهور »، فأجابنى: مجلة الزهور ! ! ! فيم تصدر ؟؟!! ومن ذلك الذى يصدرها ؟ ! فقلت إنها تصدر فى القاهرة لصاحبها ورئيس تحريرها أنطون الجميل ؛ وهنا بدرت منه بادرة أعتقد أن شيوخ الازهر يستنكرونها الآن أو يستندون على الأقل انها تتضمن الخطأ الصراح ، تلك قوله : لا أظن هذا صحيحا ، إذ لست أعتقد أن مسيحيا كائنا من كان قد تعمق فى الأدب العربى حتى انتهى إلى مثل هذا الاختيار الظريف ، العذب الخصب !!!

ولكنه ياسيدى الأستاذ مسيحى دينا عربى أدبا ؛ وقد انتهى فى دراسة الأدب العربى، إلى تعرف خططه وآثاره، وضعته ونخامته، وبهائه وروائه ؛ وقد انتهى من هذا كله الى أن نصب عقله ميزانا ووضع فى كفتيه صحيح الأدب وزائفه ؛ والى أن قال لنا فى مجلته: خذوا هذا الموضوع فادرسوه على شعاع تلك الحكمة التى يرمى اليها ، وخذوا هذا الشعر فاقرأوه وأمعنوا النظر فيه ، ثم صوروا لى العصر الذى قيل فيه ، وخذوا هذا المقال فابحثوه ومحصوه ، واستنبطوا من بين سطوره وألفاظه كل الغايات التى يرمى اليها ؛ وليس حسنا أن تفعلوا ذلك فحسب، بل قارنوا غايات الأدب العربى ووسائله فى القرن الثالث للهجرة أو الرابع مثلا، وبين غاياته فى هذا القرن الذى نعيش فيه، وانظروا الى نفسية الشعراء والكتاب والأدباء والفلاسفة فى تلك العصور الخوالى، ثم انظروا الى شعرائنا وكتابنا وأدبائنا وفلاسفتنا فى هذا العصر ، واقتدوا بهم فيما هو حسن وجميل ، واعذروهم فيما بدر منهم من النقص أو العقم .

وليس الأدب عندى هو أن تقرأ كتب الأدب وتستظهرها عن ظهر قلب، وأن تعرف تاريخ المؤلفات الادبية العربية، وتاريخ مؤلفيها وأشهر الحوادث التى حدثت لهم فى حياتهم ؛ وليس الأدب عندى كذلك أن تفهم تاريخ قيام الدولة الكلدانية أو الآشورية، وأن تبحث فى حروف اللغة

العربية المعروفة عندنا بحروف الهجاء، أهى ياترى كلدانية أخذها العرب عن الكلدانيين دون تبديل أو تغيير؟ أم أن العرب هم الذين أنشأوها واصطلحوا على وضعها بهذه الكيفية التى نراها؟ وهل هذه الحروف قاصرة عن الأداء والتعبير أم أنها سلمت من كل آفة وأضحت من الكمال بحيث تطأطىء لها الرؤوس وتحنى لها الرقاب والهامات؟ أو أن تبحث فى تاريخ السيادة القومية فى الاسلام والمسيحية أو البوذية أو الوثنية أو اليهودية، أو فى غيرها من الديانات والملل؟ وأن تقرأ أشهر الحوادث التى وقعت للأنبياء والرسل والقديسين إبان تبليغهم الرسالات التى نيطت بهم، وهل يا ترى تلك الرسائل موضوعة أم موحى بها؟ وهل جاءت إلينا كما أوحى بها من غير تحوير أو تبديل أم قد زيد عليها أشياء لا نزال نجهلها الى اليوم؟ أو أن تعجب من الدولة الفاطمية لم أكثرت من بناء المساجد وإقامة المعابد والتكايا فى مصر؟ وهل كان الحكم السياسى عند الدول الاسلامية غير مرهوب الجانب إلا إذا اصطبغ بالصبغة الدينية؟ أم أن تلك الدول كانت تجهل السياسة وكان الدين عندها هو كل شىء؟؟

أقول ليس الأدب عندى مثل هذه الأشياء فحسب، بل إنه هذه الاشياء كلها مجتمعة بشرط أن تلبسها نفس الأديب، وأن تتفانى تلك النفس وتحتجب عن الجماعة فى صورتها المادية، على أن تغذيها وتمتزج بها فى صورتها المعنوية، أى أن نفس الأديب هى التى تهدى الجماعة وتؤمها وتضىء لها طريق المستقبل الشائك الوعر من غير أن ترى الجماعة ذلك الذى يمسك لها المصباح.

وهكذا «أنطون الجميل»، تراه يغذيك فى كل يوم بغذاء جديد، ويضىء لك الطريق الذى تسلكه من غير أن تراه، وهكذا ظللت أعرف أنطون وأتغذى بأدبه وعلمه وبيانه زهاء العشرة أعوام من غير أن أراه، فلما رأيته وجلست بجانبه شعرت أنه أديب بالفطرة وبالسليقة.

وتلك هى العاطفة الفنية فى صناعة الأدب، بل هى العاطفة التى تلبس كل عاطفة، وتغذيها وتضىء إليها الطريق من غير أن تعلن عن نفسها، ومن غير أن تقيم حولها لونا من ألوان الجلبة والضوضاء، وذلك هو الأدب كما يجب أن يكون، أو بعبارة أوضح:

هذا هو «أنطون الجميل» كما يجب أن نفهم، أنطون قبل أن أعرفه أو أتصل به؛ فأما الحديث عنه بعد ذلك: بعد دراسته وبعد تحليله أديبا وفنيا، فذلك أمر يطول شرحه نرجئه إلى مقال تال إن سمحت؟

أحمد عبد الحليم العسكرى

تحـــــــذير

يحذر صاحب «المعرفة» حضرات الكتاب والأدباء، وأصدقاء «المعرفة» ومشتركيها جميعاً وأصحاب المسارح وغيرها، من اعتماد أى شخص يتقدم إلى حضراتهم بدعوى تمثيلنا أو الاتصال بنا أو العمل معنا، مالم يحمل كتابا يوضح صفته، وموقعا عليه من صاحب المجلة ومحررها.